

صورة أمريكا في المخيال الروائي المعاصر، رواية أمريكانلي إبراهيم صنع الله أنموذجا

America's Image in the Contemporary Fiction: Americanly Story of Ibrahim Sonallah as a Sample

* أ. محمد بوزياني¹، د. حميد بوحبيب²

Hamid Bouhbib², mohamed Bouziani¹

جامعة الجزائر 2 (الجزائر)

Algeria University2- Algeria

bouzianimohamed116@gmail.com

hamidbouhbib@yahoo.com

تاريخ النشر: 2021/03/30	تاريخ القبول: 2020/12/31	تاريخ الإرسال: 2020/11/04
-------------------------	--------------------------	---------------------------

ملخص البحث

تسعى هذه الدراسة إلى الكشف عن التجربة الروائية، التي كتبت عن الآخر الذي نقصد به أمريكا وبالأخص في الوقت المعاصر، في الآداب العالمية المختلفة بالاعتماد على نماذج محددة تكون كمنطلق نريد من خلاله تفكيك الخطاب وتحليل الأنساق الثقافية المضمرة فيه، إذ نتناول جانباً من حوار الحضارات والأديان، هل هي موجودة فعلاً بالإضافة إلى مسألة التحرر من الكراهية، وخطاب الخوف على الهوية ومعاداة الآخر.

وقد آثرنا مدونة روائية تحت عنوان "أمريكانلي" لصنع الله إبراهيم - لأن الرواية حين تكون بوليفونية وعميقة تعد أكثر الأجناس الأدبية قدرة على بلورة هذه الصورة متعددة الأبعاد التي نروم الكشف عنها.

الكلمات المفتاح: صورائية، في، أدب، مقارن، أمريكا، هوية.

Abstract :

This study seeks to reveal the narrative experience, that was written about the other with which we mean America, especially in the contemporary time, in various world literatures relying on specific models that serve as a starting point through which we want to deconstruct the discourse and analyze the cultural systems embedded in it. As we deal with an aspect of the dialogue of civilizations and religions; Does it really exist in addition to the issue of freedom from hatred and the discourse of fear of identity and hostility to the

* بوزياني محمد: bouzianimohamed116@gmail.com

other? Thus, we have chosen a novel as a corpus entitled "Americanly" by Ibrahim Sonallah; because when the novel is polyphonic and profound, it would be the most capable literary genre in crystallizing this multi-dimensional picture that we intend to uncover.

Keywords: Imaginary, Literature, Comparative, America, Identity .



مقدمة:

تختلف صورة أمريكا من مجتمع إلى آخر باختلاف السياق التاريخي وطبيعة الأنساق الثقافية، جدلية العلاقة بين المهيمن والمهيمن عليه ضمن العلاقة الشائكة ما عرف بالميجا إمبريالية، وقد تشكلت هذه الصورة في تطورها التاريخي عبر مراحل عديدة، إلى أن استقامت على ماهي عليه الآن.

إنّ صورة أمريكا في المخيال العالمي، هي ثمرة تمثلات مختلفة -ومتناقضة أحيانا -شكلتها السينما -هوليوود أساسا- بالدرجة الأولى.

فانطلاقا من الحرب العالمية الأولى، خرجت أمريكا من عزلتها، وتخلت عما كان يعرف بمبادئ ولسن، وصارت قطبا أساسيا في الصراعات الدولية، إلى درجة أنّ مصطلح إمبريالية لم يعد ملتصقا إلاّ بها. ولكن من جهة ثانية أنتجت صورة أخرى لأمريكا جديدة أكثر إشراقا: الحلم الأمريكي، العالم الجديد، أرض تكافؤ الفرص، الحرية والتعددية، المبادرة الفردية وحرية العمل والاستثمار وجمع الثروة... إلخ.

إنّ فهم هذه الصورة متعددة الأبعاد، يجب أن يتخلى عن الإدراك الأحادي الذي يركّز فقط على قطبي الصورة الإيجابي والسلبي، ليحاول إدراك المساحات المعتمدة الواقعة بينهما، وكيف تشكلت على مر الزمن وكيف أسهمت الرواية في بلورتها.

إنّ تاريخ أمريكا الحديث هو سلسلة من الوقائع العنيفة، إبادة الهنود الحمر، استعباد الزنوج، المافيا وتجارة الأسلحة، حرب منع الكحول، صراع العصابات وسيطر فيها قانون الغاب لمدة غير قصيرة. ثم جاءت الحرب العالمية الثانية لتعمق أكثر ازدواجية الصورة. أمريكا المنقذة من النازية، المساهمة في إعادة تعمير أوروبا عبر مشروع مارشال، وأمريكا المكتسحة العنيفة عبر مجزرة هيروشيما وناكازاكي... وتتواصل هذه الازدواجية في النصف الثاني من القرن العشرين ومطلع

القرن الواحد والعشرين، فمن جهة تخوض أمريكا حروب مدمرة في كوريا والفيتنام، وتصر على وقوفها اللامشروط مع إسرائيل ، ومن جهة أخرى تضاعف مساعداتها الإنسانية لكثير من الدول المأزومة، وتدعو إلى محاربة كارتل الكوكايين..؟ وبعدها سعت أمريكا لصنع مجدها عبر السينما ، وأنشأت هوليوود لتبييض صورتها فعرضت علينا أفلام الـ"وسترن" وكذا الجنس والمغامرات من أجل التأثير في الآخر واستقطابه عبر شعار الحرية والديمقراطية ، فأصبحت محط الأنظار وبدأ يرحل إليها كل من لديه حلم يسعى لتحقيقه ، وهنا بدأت تتضح صورة أمريكا في المخيال العالمي وقد تماشت الظاهرة الأدبية مع ذلك التطور الحاصل في المجتمع الأمريكي وبخاصة جنس الرواية ... وستبقى الصورة متأرجحة بين صورة الفردوس وصورة الغاب ... فردوس الحلم الأمريكي ، وغابة الصراع الشرس الذي تفرضه الرأسمالية بلا أي مراعاة لقيم التنوير والإنسانية.

إشكالتنا إذن هي كيف تبلورت صورة أمريكا في الآداب العالمية ؟ وماهي نظرة المستضعفين لهذا المهيمن ؟ هل هي صورة إعجاب وانبهار وذويان في الأدب والثقافة الأمريكية ؟ أم صورة عداة وخوف ؟ أم أنّ هناك مساحات رمادية بين هذا وذاك { صور أخرى } ؟ هل المدونة التي اعتمدنا عليها تستطيع أن تكشف هذه الصورة ؟ هل هي صورة نمطية أم صورة حية متعددة الأبعاد أتجاه هذا المارد الذي سيطر على العالم ؟

1. مدخل إلى علم الصورة:

لقد ظهر علم الصورة كأحد فروع الأدب المقارن ومن أحدث مجالاته، حيث انتشرت دراسات حول الصورة في الغرب، ومن ثم توسعت و امتدت إلى العالم العربي بعدها وهذا كله قصد فهم الأنا والآخر، وبرز هذا الحقل أكثر أثناء المرحلة الكولونيالية ومايليها، لما يتمتع به من خصوصية بالغة الأهمية في مجال الكشف عن خصائص الشعوب وثقافتها وأشكال وجودها المادي والروحي، حيث رأت أنّ " الأنماط هي العناصر الأكثر أهمية بالنسبة للنظرية ما بعد الكولونيالية، إذ أنّها تكشف عن الرؤية الجوهريّة و التمييزية للمحتلين " ¹. لكن هذه الأنماط قد تتداخل فيما بينها، وتشارك ضمن حقول أخرى، كالتاريخ و السوسولوجيا و الأنثروبولوجيا، لذلك وجب ربطها بالأدب ذلك لأن كبار منظري الفكر الاستشراقي وما بعد الكولونيالي على حد سواء، كثيرا ما يعودون إلى الأنماط و الكليشيهات ذات العلاقة بالشعوب المستعمرة، ويتمثل عملهم في تصنيف الإثنيات والأعراق والحضارات إلى مجموعات متراتبية، تؤسس لفكرة المركزية الغربية وتنحازها، إذ تعتبر الرجل

الأبيض هو السيد والباقي عبيد حيث أنها تبرز تفوقه الحضاري على الآخر الضعيف المهتمش، ومن هذا المنظور تحديداً الفكر الاستعلائي المبني على التمييز العنصري .
يجمع المشتغلون على هذا المنهج في المجال الأدبي المقارن أنّ علم الصورة "هو دراسة صورة الآخر الأجنبي في الخطاب الروائي والأدبي بشكل عام"². لأنّه يقودنا إلى معرفة ذواتنا من خلال الآخر، ويتم ذلك بالاعتماد على إجراءات نقدية موضوعية بعيدة عن التعصب لإثنيات القومية والصليبيات الميثولوجية.

إن علم الصورة (IMAGOLOGIE) هو منهج الدراسات المقارنة التي تستهدف النظر في علاقات التفاعل بين الثقافات من قوميات مختلفة، وهو منهج حديث النشأة مقارنة بالمناهج النقدية الأخرى في مجال العلوم الإنسانية دون استثناء يعتمد على النمط و الصورة التمثيلية إذ يرى أموسي (AMOUSI) أنّ "النمط يبدو وكأنه معتقد أو رأي عام و هو يهدف إلى تشكيل الواقع الثقافي لجماعة معينة في إطار الفضاء الإيديولوجي والجمالي المبتغى، بطريقة تسمح بإبراز العدسة التي ننظر من خلالها إلى الذات والأجنبي"³. أي الأنا و الآخر.

الهدف من دراسة الصورة:

يهدف منهج علم الصورة إلى الكشف عن المخيال الاجتماعي والثقافي للكاتب الذي صنع الصور التمثيلية، ومن ثم المساهمة في تعديل ملامح هذا الواقع لدى الأفراد والجماعات وفق صورة أكثر موضوعية عن الذات كما أنّ الصورائية تعمل على فهم العمل الأدبي من خلال تلقي الأنساق المضمرّة في بنيته العميقة . فالصورة هي جزء منه، وفي هذا الصدد يقول مورا (MOURA) بأنّ علم الصورة "يساعد بشكل مزدوج في التعرف على الأدب، وذلك عن طريق دراسة الأشكال المحيطة للعمل المفرد والقابلة للمقارنة، وعن طريق دراسة الشبكة الخيالية التي ينفصل عنها هذا العمل ليصبح إبداعاً خاصاً"⁴.

كما يذهب دانيال هنرياجو (D-H pageaux) إلى اعتبار الصورة حقلاً "لدراسة صور الثقافة"⁵. أو "التمثيل الأدبي للأجنبي"⁶.

أي ذلك الرصيد الأدبي الذي تكونه الشعوب عن بعضها البعض، هنا الصورة من خلال المقارنة يمكن أن تخلق واقعا جديدا داخل الأنا اتجاه الآخر، كذلك تعبر عن صورة الأنا من خلال تصور

الآخر، فصورة الآخر المختزلة في الأنا لا تعبر بالضرورة عن الآخر فقط، وإنما تتجاوز ذلك لتكشف عن صورة الأنا نفسها من خلال رؤيتها للآخر المختلف.

وفي تعريف آخر لباحو حول ما يسمى بالصورة المقارنة اعتبر أنها " تعبير أدبي أو غير أدبي عن انزياح ذي مغزى بين منظومتين من الواقع الثقافي " ⁷. أي أنه لا يمكن أن تحدث عملية المقارنة دون وعي الأنا في مواجهة الآخر ومعرفته، وهذا ما ولد إشكالا فيما يخص المقصود بالانزياح . الانزياح في ميادين أخرى كعلم الاجتماع وعلم الإناسة بل حتى في الأدب المقارن نفسه، حيث أبانت عن أزمة عن الجدوى من دراسة الصورة، حيث اختلفت مواقف الدارسين من علم الصورة بين مؤيد ومعارض لها و تزامن هذا مع نشر رونييه ويليك *مقاله الشهير "أزمة الأدب المقارن " بحيث أبانت هذه المرحلة عن صراع كبير في تاريخ تطور "الأشياء والأحداث والأفكار" ⁸. بهذا المعنى فقط يمكن أن نتحدث عن أزمة الصورية التي اعتبرت جزءا من أزمة الأدب المقارن، " والهدف من دراستها كمنهج. من خلال كل ما سبق نذكر بأن المفاهيم المتعددة للصورة وعدم الاكتفاء بتعريف جامع لها يعكس الصراع الثقافي، والصدام الإثني والسياسي والإيديولوجي بين الشعوب والقوميات وتجلى ذلك في مجالات الأدب والسينما رغبة في التعامل مع الآخر وتشكيل الموقف منه وتصنيفه في عصرنا الحالي، وقد كتب هومي بابا في موقع الثقافة نقلا عن إدوارد سعيد في سياق حديثه عن الصورة قوله: " الرحلة، التاريخ، والحكاية الخرافية والصورة النمطية والمناظرة الجدالية، تلك هي العدسات التي يختبر من خلالها الشرق، وهي التي تصوغ لغة المواجهة بين الشرق والغرب ... " ⁹. وهو يقصد بذلك الصورة التمثيلية التي تكون محففة في حق الآخر كونها ناتجا مركبا ومعقدا لا يخضع للخلية الحضارية للأديب فحسب .

2.1 أنواع الصورة المقارنة:

الصورة هي تلك الأعمال التي تختص بتمثيل الأجنبي، أي ما يظهره أديب ما أو شعب ما عن شعب آخر و تنقسم إلى قسمين:

1.2.1 صورة شعب في أدبه: وهذا النوع لا يتعدى إطاره القومي واللغوي مثل "صورة الفرنسيين في أدبهم وصورة المرأة الألمانية لدى أديب ألماني" ¹⁰. أي أنّ هذا النوع من الصور يعكس لنا صورة الأنا ذاتها.

وتنطوي هذه الصورة على بعد معرفي مؤثر يعزز وعي الجماعة بذاتها، إذ يتعرف الشعب على ذاته من خلال أدبه " فيصبح التعرّف المصاحب لتأمل صور المرأة مقدمة للفعل الخلاق، وباعثا على التغيير نحو الأفضل"¹¹. أي أنّ الشعب الذي يطلّع على الآداب التي ينتجها هؤلاء الأدباء الذين يمثلونه يكتشف نفسه ويسعى إلى تصحيح عيوبه بنفسه.

2.2.1. صورة شعب في أدب شعب آخر: لعلّ من الضروري وجود نسبة من الاهتمام المشترك بين شعبين لكي يكوّن أحدهم صورة في أدبه عن شعب آخر، فالأدباء " الذين يتحدثون عن صورة الشعوب يحددون بأنهم يقصدون بصورة الشعب كل ما في الذهن حول ذلك الشعب"¹². و ينتج ذلك التأثير إما عن طريق زيارة فعلية أو ما سمعه أو ما كتبه الأدباء و حينذاك يرسم صورة لهذا الشعب ترسم في أذهان قومه مثل " صورة الجزائر في الأدب الفرنسي"¹³. شارل تيار (CHARLES TAILLIART).

إن دراسة صورة شعب لدى شعب آخر تبقى نمطية تختزنها الذاكرة الجماعية لذلك توجب تخليصها من الذاتية والنظر إلى الجانب الإيجابي منها، فهي تساعد الشعوب على فهم بعضها البعض والتعاون فيما بينها في مجالات مختلفة وتطهر كل شعب من أوهامه وبذلك تستطيع الشعوب أن تجابه حاضرها ومستقبلها بطريقة موضوعية.

2. تعالق الذات مع الآخر:

شكلت مسألة العلاقة بالآخر سواء كانت انبهارا و ذوبانا أم صداما وحذرا قضية جوهرية في حقل الأدب المقارن فجاءت الأعمال الأدبية تباعا وراح النقاد المقارنون يشتغلون على علاقات التأثير والتأثر وأوجه المتأقفة والتثاقف، انطلاقا من مبدأ الانفتاح الإنساني، والتبادلات الجريئة في الخبرة الفنية والفكرية والأدبية مع مناطق العالم المختلفة تأكيدا للبعد العالمي للأدب العربي وآفاقه الرحبة في ظل التفاعلات الكبرى.

بناء على هذا فقد تعددت حالات فهم الآخر وقراءته انطلاقا من رسم صور متعددة له، إذ نجد الصورة السلبية اتجاه الآخر مجسدة في العدائية التاريخية والثقافية، وهذا ماذهبت إليه الناقدة السورية ماجدة حمود في معرض حديثها عن الأوروبي إذ رأت بأن " صورة الأوروبي (المستعمر) في كثير من نصوص الأدب العربي مشوهة (مادي، غير أخلاقي، يزرع الضغينة حيثما حل (...)"¹⁴، مما يؤدي إلى إثارة مشاعر العداة نحوه هذا من جانب أما من جانب آخر فقد تنشأ

صورة مشوهة إيجابية عن الآخر نتيجة الانبهار بثقافته إلى حد الذوبان فيها مما يؤدي إلى " رسم صورة الآخر الأجنبي على حساب الصورة الحقيقية له"¹⁵ تأثراً بنمط العيش وحرية الملبس والحرية الفكرية والعقائدية، وبين هذا وذاك تنشأ لنا صورة أكثر موضوعية تعتمد على الوعي بالأنا مقابل الآخر وتتخذ منه ندا لها في إطار التسامح، ولكن الثقافة المبنية على التسامح والانفتاح على الآخر تحتاج إلى " نضج فكري ومعرفي، يقوم على التأمل والتمثل لثقافة الآخر لا إلى استيرادها وتقليدها، وبالتالي يحتاج إلى حوار دائم بين الذات والآخر بعيداً عن العقد النفسية " ¹⁶ التي تجعل من الإنسان متعصباً ومنغلقاً أو متفتحاً زيادة عن اللزوم.

وتطور الوعي العربي في ظل المتغيرات الاجتماعية والسياسية والحضارية المتتابعة ومع بروز حقول معرفية جديدة في الدراسات الأدبية المقارنة فاسحة المجال للنظرية الكولونيالية وما بعد الكولونيالية التي شرحت الاستعمار وعثرته على حقيقته، بدأت الأعمال الإبداعية الروائية تأتي تباعاً، ولعلّ من أبرزها نجد رواية "موسم الهجرة إلى الشمال" للطيب صالح¹⁷ رداً على رواية "في قلب الظلام" لجوزيف كونراد فهي تتعالق معها وتماهى إلى أبعد الحدود فيقدر اختلافها معها نجد ائتلافاً إذ رسمت لنا حدوداً في تعاملنا مع الآخر وجسدت الثنائيات (شرق غرب) ، (شمال جنوب) ... إلخ.

ويرى يوسف بكار أنه " فات كل الذين كتبوا عن موسم الهجرة إلى الشمال تأثر الطيب صالح بنظريات فرانس فانون، عن تحرير الشعوب من أصناف الهيمنة ومناهضة الاستعمار "¹⁸ إذ يلعب المثقف دوراً كبيراً في كشف أهداف المستعمر ويبين لنا العلاقة بين المثقف المستعمر والغرب بكل تجلياته وفق الأوجه الآتية: "مرحلة التماثل الكامل تليها مرحلة القلق والانزعاج، ثم تأتي مرحلة الإنتاج الثوري وهي مرحلة المعركة التي يتحول فيها المثقف إلى موقظ للشعب يدفعه لوعي ذاته "¹⁹ . وعلى العموم ترى جل الدراسات النقدية المقارنة أن الأدب الروائي أكثر أشكال الأدب استيعاباً لقضية التفاعل الحضاري وحوار الثقافات لأنها تستند على رؤى فكرية تؤمن بالتنوع والهويات، ومن هنا جاءت الفكرة عن نظرة العرب للآخر المتمثل في أمريكا، وقد ركزت في ورقتي البحثية على رواية "أمريكانلي" لصنع الله إبراهيم.

3. صورة أمريكا في رواية أمريكانلي لإبراهيم صنع الله:

لا شك أن هناك تمايزا محكوما بالتنوع والاختلاف في التجربة الروائية من البدايات إنَّ الروائيين العرب على اختلاف مستوى تجربة كل منهم يؤكدون على سعيهم المشترك نحو تشييد عوالم روائية ممكنة ومتحققة ، لكل منها مرجعيتها المعرفية والجمالية المختلفة.

و يبرز هذا التماثل على مستوى العالم الدلالي للرواية " موضوعاته ، ومرجعياته التاريخية والاجتماعية والثقافية " ، كما يبرز هذا التماثل بأساليب السرد وطرائق المعالجة والتناول، أنماط الكتابة الروائية وأنساق التعبير المعرفي والمنتخيل في آن. فهذا السياق يمكن النظر إلى تجربة "صنع الله إبراهيم" الروائية من خلال أعماله كلها، على أنها تجربة متميزة، تشترك مع ما أنجزته الرواية العربية المعاصرة في تكوين الهوية الذاتية، بالإضافة إلى المساهمة في تأصيل الكتابة السردية لهذا الجنس الأدبي الجديد الذي بدأ يأخذ مركز الصدارة في مملكة الإبداع العربي.

اعتمد صنع الله إبراهيم في مواضيعه على الابتكار والتجديد في الطرح بالانفتاح على عوالم مغيبة من أجل إيصال صوته إلى أقصى حد ممكن، فراح يخط بريشة قلمه سمفونية عنوانها اللقاء بالآخر، حيث عالج لنا اللقاء الحضاري بين الشرق والغرب ورسم لنا بعض معالم ذلك الشرخ الأسطوري المتجدد بين الأنا والآخر.

وإجمالاً يمكننا القول أنّ هذا النوع من الكتابة الروائية عكس لنا " صدمة اكتشاف الآخر الأوروبي منذ وقت مبكر ولكن الغريب أن هذه الصدمة لم تتوقف منذ زمن الاكتشاف الأول إلى زمن العولمة الحالي"²⁰ وأمريكا جزء من هذا الآخر عبر هذه البوابة يمكن الدخول إلى "أمريكانلي" *صنع الله إبراهيم التي تفصح منذ سطورها الأولى عن رموزها وماتحملة من دلالات إذ يتابع صنع الله إبراهيم مشروعه التاريخي في "رواية أمريكانلي" حيث يغلب عليها السرد التاريخي للأحداث وتطور الشخصيات فيها، فبطلها الدكتور "شكري" هو أستاذ مصري زائر في معهد التاريخ المقارن في جامعة سان فرانسيسكو، يروي سيرته الذاتية مؤرخا عربيا معاصرا " قضى أكثر من ثلاثين سنة في المهنة محاولا بذلك تتبع العوالم التي ساهمت في توجيهه إلى دراسة التاريخ، واعتماده منهجا معنا في أبحاثه، ثم محاولة تقديم هذا المنهج وتقدير نصيبه من النجاح و الفشل"²¹ من خلال عقد مقارنات تشمل تصوير التاريخ الإمبريالي لأمريكا من أجل وضع إطار متخيل لطبيعة العلاقة بين الأنا العربي والآخر الأمريكي في تاريخ العلاقات الإنسانية، يلتحق الأستاذ "شكري" بالمعهد لياشر مهامه ، أول ما يلاحظه هو التنوع في جنسيات الطلبة ، إذ يتكون طلاب المادة

من سبعة أو ثمانية من الأمريكيين ذوي الأصول و الخلفيات الثقافية المتباينة، فينهم الأسود والهندي، الأحمر والأبيض والياباني واليهودي والمسيحي والمسلم، هذا التنوع الذي شكل بناء السرد التاريخي والسياسي في الرواية إذ قدم لنا صور متعددة عن الآخر ووثق لنا ذلك بمستندات و أدلة، ومراجع و من بين المواضيع التي تطرق إليها "صنع الله إبراهيم" في روايته تاريخ مصر القديم والحديث منذ الفراعنة مروراً بالفتح العربي (الإسلامي) وحتى العصر الراهن أي عصر حكم جمال عبدالناصر وأنور السادات، بالإضافة إلى تقديمه لصور ونماذج من التاريخ الأمريكي وتردي الأخلاق والأمن الداخلي وقضايا أخرى تحمل صوراً مليئة بالمفارقات والتناقضات عن المجتمع الأمريكي.

أمريكانلي أو "أمري كان لي" هي تجسيد لمخيلة الحلم الأمريكي في أذهان المصيريين المثقفين ربما بدافع الخواء الجنسي والفكري لكن واقع الأحداث في الرواية أو عندما قمنا بتفصيل اسم الرواية كشفت لنا عن أنساق مضمرة تنم عن الرغبة في التأمرك، لكن الواقع قدم لنا صوراً حقيقية تدل على الارتباك وتبخر الحلم والاصطدام بالواقع الذي فرض على الأستاذ شكري أن يكون أكثر مرونة وانفتاحاً على هذا الآخر لكي لا يحصل التصادم، فالحياة الأمريكية ليست بهذا الأبحار الذي نتخيله.

1.3. الصورة السلبية عن الآخر (أمريكا) :

امتداداً للصورة السلبية، وتكملة للغرب الاستعماري والعدواني تأتي صورة الغرب العنصري من خلال التمييز الطبقي في المجتمع الأمريكي ونلمس ذلك في الموقف الذي تبناه صنع الله إبراهيم عن أمريكا كردة فعل عن هذا الآخر، تعويضاً للإحساس الذي ينتابه إزاء هذا المارد الذي يفرض منطق التفوق بالقوة، ونجد ذلك في أحداث الرواية من خلال الحوار إذ يقول "ماهر" الأمريكي المصري الأصل مثلاً "العرق الأصلي هنا مهم، هناك 30 عرقاً رئيسياً مرتبين هرمياً الوظائف الأعلى للبيض يليهم السود ثم الهسبانيك أبناء أمريكا اللاتينية، الآسيويون وبقية الأعراق وكل منهم يتعالى على الذي بعده ويعتبره غريباً ينازعه الوظائف الدونية، وداخل كل عرق ترتيبات أيضاً"²² فمن الواضح أن هذه العنصرية هي وليدة التاريخ أيضاً، لا من وقت الاستعمار فحسب بل مما قبله ومما بعده، فقد هيمنت وحسب طروحات النظرية ما بعد الكولونيالية، "الميثولوجيا البيضاء على الفكر العالمي، وأصبح الغرب مصدر العلم والمعرفة والابداع، وموطن النظريات

والمناهج العلمية، ومن ثم أصبح الغرب هو المركز...²³ وهذا تجسيد للنظرة السلبية الخاطئة التي تبناها الأمريكيون تجاه الآخرين، ومن هنا تمثلت رواية أمريكانلي صورة الأمريكي الإمبريالي المتعالي العنصري القبيح، ونواصل في نفس السياق تقدم الصور في مستوياتها السلبية للأمريكان ونظرتهم الدونية للأعراق وتصنيفهم العنصري، " فبعد 130 سنة على إلغاء العبودية مازال السود معزولين في أحياء خاصة بهم، تشكو الفقر والبطالة والعنف و المرض... ولا تكاد تجد إلا قلة منهم بين الأطباء والمحامين والمهندسين، كما إنهم يحصلون على أجور أقل من التي يحصل عليها نظرائهم البيض"²⁴ هذه أمريكا التي تدعي المساواة والديمقراطية، في الواقع ماهي إلا شعارات براقه لتبييض صورتها أمام الآخر، وتاريخها حافل بالمآسي والمجازر، فقد قامت على أنقاض الهنود الحمر وتضحيات السود، لكن هذا لا يعكس الرغبة القوية لأمريكا من أجل تأسيس مجتمع موحد أساسه تنوع واختلاف الأعراق، فهذه مجرد وجهة نظر للكاتب والحقيقة هي يجب أن تبني صورة موضوعية لا تقاس على شريحة بحد ذاتها.

2.3. الصورة المتناقضة لأمريكا الحلم :

بعد فقد الأمل الذي بدأ يتسلل للشعوب العربية من خلال الصدام الحضاري الاستعماري المباشر مع أوروبا بدأ يتبادر إلى مسامع العرب ذلك العالم الجديد المتمثل في أمريكا بقيم ومواصفات جديدة من خلال وسائل الإعلام وبعض التجار، فبدأ الحلم يكبرو يزداد مع مرور الوقت وسرعان ما صارت أمريكا ذاتها حلما للآخرين ومنهم العرب، بل أكثر من ذلك أن يكون الإنسان أمريكيا، أو يعيش على أراضيها وأن يحمل جواز سفر أمريكيا كثيرا ما صار يسيل لعاب البعض عليه، وانتقل هذا الطرح إلى الإبداع الروائي إذ نرصد ذلك بصورة جلية في " أمريكانلي " لصنع الله إبراهيم " قال تمام الجنسية الأمريكية أمان في مصر كذلك أنا لي اثنين قرايب، اختلفا حول ملكية قطعة أرض في الصعيد، واحد منهما عنده الجنسية الأمريكية. فتدخلت لدى وزارة الداخلية المصرية وعلى الفور راحت قوات الأمن المركزي إلى موقع الأرض ومكنته من ملكيتها، شفت؟"²⁵ وهذا يعكس لنا موقفا من مواقف المقاوم الحر " صنع الله إبراهيم " اليساري التوجه إذ يبين لنا جانبا من القناعات الشخصية التي يعتنقها وتعبر عن إدانته للسياسة التي ينتهجها النظام المصري وحليفته الولايات المتحدة الأمريكية عندما رفض قبول جائزة الرواية العربية التي قدمتها إليه وزارة الثقافة المصرية في تشرين الأول عام 2003، وقد برر أسباب رفضه بقوله "

أن هذه الجائزة مقدمة من حكومة لا تملك - في نظري - مصداقية منحها²⁶ في إشارة منه للعجز الحقيقي لدى أنظمة ترسم سياستها في البيت الأبيض بواشنطن، مصورا لنا زيف الديمقراطية وحقيقة البطش السلطوي المتستر باسم الديمقراطية المدعومة من الأمريكان، هكذا تم استحضار الحلم الأمريكي بطريقة تحمل من التناقضات بما كان في الوهلة الأولى تأسرك بسحرها وجاذبيتها بناء على صور نمطية مسبقة كونها بلد الحرية والثراء وتحقيق الأحلام ولكن الواقع يصدرك إذا ما حللت بها، وهذا ما أراد أن يوصله لنا " صنع الله إبراهيم " من خلال تقديمه الحياة الأمريكية في أوجهها السلبية المغايرة تماما للرؤية السابقة التي تمثلت عن أمريكا، فهذا هو بطله في الرواية ينقل لنا مثل هذا الجانب " وعدت إلى جينيف أعطيتها الأوراق، وبقت (كذا) في يدي ورقة زرقاء مطوية تضمنت خريطة صغيرة لحرم الجامعة وتحذيرات عديدة قرأتها في عناية: - لا تفتح باب مسكنك لطارق قبل أن تتأكد من هويته.

- لا تدع أغرابا إلى منزلك.

- لا تترك أشياء ثمينة في سيارتك، وعندما تتوقف في مكان ما أغلق نوافذها وإذا غادرتها افعّل هذا بسرعة واغلق أبوابها بإحكام²⁷. إذ تعكس لنا هذه العبارات مقدار القرف الذي يعيشه بطل الرواية ويصور لنا حياة أمريكا جحيما لا تطاق في البيت والشوارع التي ينتقل عبرها، بل تمتد تلك المعاناة وتصاحبه حتى داخل الحرم الجامعي، " قائمة الجرائم التي تقع في الكامبوس خلال سبعة أو ثمانية أشهر: "بلاغان عن اغتصاب واعتداء بالضرب، وسبع سرقات وقع أغلبها أثناء مغادرة الطلبة للمكتبة..."²⁸، كل هذه الصور السلبية تجسد الحياة في أمريكا المتمثلة في الانحلال والجنس وانعدام الأمان وانتشار الجريمة، ولا يكفي صنع الله إبراهيم بما سبق بل يخوض في مسألة الهوية في أكثر من موقف في الرواية فطلاب "شكري" في المحاضرة هم عنوانات لمشروع بحثه، ومن ذلك دفاعه عن ماهية القومية العربية التي أهتمها إحدى الطالبات وهي "مونا" بهشاشة أساسها، فرد عليها بقوله: " بالنسبة لأي مصري أو كويتي أو مغربي فإنّ القومية العربية هي الضمان الوحيد للمستقبل، وحتى لو لم يدرك البعض منهم ذلك..."²⁹، وفي موقف آخر يبدي إعجابه بمدى شجاعة أحد الباحثين حين وصف ماتم في عهد السادات والتعاون الأمريكي بأنه برنامج لتحطيم القومية العربية³⁰، وهذا التركيز على مفهوم القومية العربية والدفاع عنها هو طريق لإثبات الهوية الضائعة لاسيما أن الآخر هو محور تحد لهذا الإثبات، إضافة إلى أن طبيعة البيئة التي يتم

خلالها بحث الهوية هي بيئة غربية ومحاكاتها موزعة بين الشخصية الغربية والشرقية، ومن هنا يتضح لنا مدى ارتباك الهوية وتناقضها ما بين الأسس النظرية والواقع المعيش .

ويورد في أكثر من موضع من الرواية تلك النظرة التي ينظر بها الآخر إلى الأنا على أنها إرهابية بمجرد ارتباطها بالشرق، ومن ذلك وصفه للمرأة الأمريكية التي التقاها (شكري) بطل الرواية في حفل التعارف في المعهد: " انضمت إلينا أمريكية سوداء بدينة قصيرة القامة ...، خاطبتي باعتداد متسائلة عن بلدي ثم عن الإرهاب "31، وفي مقام آخر يقول "ماهر" زميله في المعهد الجامعي: " أه، العربي متهم دائما، هل تذكر تفجير متجر التجارة في أوكلاهوما سنة 1992؟ وقتها نشطت الميديا لإثبات التهمة علينا "32 وهذا الكلام يؤكد أن ربط الإرهاب بالعرب والمسلمين أصبح آلية يتبعها الغرب كي يشوه صورة المسلمين في كافة أرجاء العالم.

وهكذا يستمر الكاتب بهذه الوتيرة ذات السمة الثقافية فيسرد ردود الفعل إزاء مسألة الإرهاب، فيقدم الصورة المشوهة تارة ويأتي بما يدحضها ويعارضها تارة أخرى، فمثلا يدلي على لسان أحد شخصيات الرواية واسمه "لاري إن" وهو غربي شهادة يرفض فيها الأعمال الإرهابية التي تقوم بها أمريكا ضد العالم، نقرأ: قال لاري: "العقوبة التي أوجعتني هي اضطراري لأن استمع إلى خطاب كلينتون في الأمم المتحدة الذي دعا فيها لعالم إلى مكافحة الإرهاب" أوضح وهو يعدد أصابعه: نسي كلينتون " أننا نحن الأمريكيين مارسنا خلال مائتي عام أفضع أشكال الإرهاب الدولي "33 ويتضح لقارئ الرواية أنها تعالج جانب الإرهاب من مدخل ثقافي يطرح الرأي والرأي الآخر.

وفي نهاية الرواية يحاول صنع الله تلخيص آرائه من خلال عرض فيلم لأربع شخصيات نسائية تنوعت اتجاهاتها الفكرية ومن ضمنها رفض الغرب على لسان "صافي" التي تعالج القضية من جانب ديني تقول: " نحن نقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله، الله هو الأكبر أكبر منكم جميعا ... أكبر من أمريكا والنظام العالمي الجديد الذي يسعى إلى تجريدنا من كل أثر لإنسانيتنا "34 وترفض في نفسها أي شكل للخضوع للغرب، تقول: " الغرب هو القوة المسيطرة أيديولوجيا وثقافيا إذا ظنوا أي عدو لأني لا أريد الخضوع لهم لا بأس، إنهم أعدائي أيضا ليذهبوا إلى الجحيم "35.

ختاما يتضح لنا أن صنع الله حاول إثارة الأسئلة وتعميق التأزم في رحلة البطل إلى الغرب، مما يجعل المتلقي أمام نص مفخخ لفك شيفرة رفض الآخر أو الانبهار به من جهة أو براغماتية

الموقف من جهة أخرى، ولا تتوقف مسألة الرفض عند الأنا الشرقية فهي مقابلة برفض الآخر وعدائه له، حيث نجد الآخر دائما ما يربط صورة الإرهاب ومفهومه بالعرب والمسلمين على وجه التحديد، وقد عكست أحداث الحادي عشر من سبتمبر عام 2001، ما يكتفه كل طرف للآخر من صورة عدائية أقولها بتحفظ، فأصبح الشك والترقب سمة بارزة لكليهما، وفي رواية "أمريكانلي" كثير من الإشارات في هذا الجانب ومن ذلك استعراض مجموعة من الأفلام السنمائية الغربية التي تبرز الصورة المشوهة عن العرب مثل فيلم "النسر الحديدي" الذي يصور نجاح مجموعة كوماندوز أمريكية في نسف محاولة إقامة مفاعل نووي عربي، وفيلم "أكاذيب حقيقية" الذي أنتج بعد حادث ضرب مركز التجارة العالمي وما تلاه من تصاعد للمد الإسلامي، وغالبا ما يقصد صنع الله مثل هذه المزاوجات حتى يضع القارئ في مساحة لاستخلاص الصورة القائمة عن الآخر، متجنبنا الكشف المباشر عن رأيه في تلك الصورة، إلا ما جاء رمزا على لسان شخصياته.

هوامش:

¹ براهيم بوخالفة: أطراف الاستشراق - تشكلات الآخر في روايات أمين معلوف - دار رؤية للنشر و التوزيع، ط1، القاهرة، 2018، ص132.

² المرجع نفسه، ص133.

³ ruthamossy et anneherschberg .stéréo types et clichés. Ed .Nathan . Paris .1997.p 26-27

⁴JM Moura, l'image du tiers mondedans le roman franaiscontemporain Paris1992, p.14.,presses universitaires de France

⁵pageaux, d -h : l'imagerie culturelle : de la litte'ratuurecompose'e l'antropologieculturelle revue synthèse, no x-1983 p79

⁶Ibid p 79

⁷دانييل هنري باجو: الأدب العام المقارن، تر: غسان السيد، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، دط، 1997، ص91.

⁸عبد النبي ذاكر، المغرب والغرب نظرات متقاطعة، دار ارتياد الآفاق، ط1 المغرب 2018، ص75.

⁹هومي. ك. بابا، موقع الثقافة: تر: نائر ديب، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء المغرب / بيروت، 2006، ص145.

- ¹⁰ عبد المجيد حنون، صورة الفرنسي والفرنسية في الرواية المغاربية، دار بحاء الدين للنشر والتوزيع - ط2، 2015، ص58.
- ¹¹ جابر عصفور، المرايا المتجاوزة (دراسة في نقد طه حسين)، دار قباء، ط، مصر 1998 ص 90.
- ¹² عبد المجيد حنون، صورة الفرنسي في الرواية المغربية، ديوان المطبوعات الجامعية، ط 1986، ص82.
- ¹³ Charles Tailliar : « l'algerie dans la litterature française » thèse présentée en 1924, rééditée par slatkinerepints, Genève, 1999..
- ¹⁴ ماجدة حمود، صورة الآخر في التراث العربي الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت ط1، 2010، ص25.
- ¹⁵ المرجع نفسه، ص28
- ¹⁶ المرجع نفسه، ص29.
- ¹⁷ رجاء عيد، لقاء الحضارات في الرواية العربية، مجلة فصول، القاهرة، مجلد 16، ع 4، 1998، ص57.
- ¹⁸ يوسف بكار، في دائرة المقارنة، دراسات ونقود، دار فضاءات، عمان، 2013، ص197.
- ¹⁹ ينظر، فرانز فانون، سوسيولوجية ثورة، تر : ذوقان قرقوط، دار الطليعة، بيروت، 1997، ص227.
- ²⁰ نزيه أبو نضال: المثقفون العرب والغرب، 1- صدمة (العصفور الشرقي) توفيق الحكيم، جريدة الدستور، عمان 1999/10/1، ص25.
- ²¹ المصدر نفسه، ص33-34.
- ²² المصدر نفسه، ص57.
- ²³ جميل حمداوي، نظرية ما بعد الاستعمار، (شبكة الألوكة)، <http://www.alukah.net/>، 2020/03/10، 20:25.
- ²⁴ أمريكانلي، المصدر نفسه: ص 152.
- ²⁵ المصدر نفسه: ص 180.
- ²⁶ جهاد عقل، صنع الله إبراهيم المقاوم الحر، الحوار المتمدن، ع 1038-5/12/2004 المنشور بموقع <http://www.ahewar.org> 3-16-2020، 20:20، 2020/03/12.
- ²⁷ أمريكانلي: المصدر نفسه، ص13-14.
- ²⁸ المصدر نفسه: ص 109
- ²⁹ المصدر نفسه، ص 348.
- ³⁰ ينظر، المصدر نفسه، ص407.
- ³¹ المصدر نفسه، ص88
- ³² المصدر نفسه، ص58
- ³³ المصدر نفسه، ص396

³⁴المصدر نفسه، ص 422-423.

³⁵المصدر نفسه، ص 423.